سيبويه المصرى (١)

للاستاذ احمد أمين

شخصية غريبة كانت فى مصر فى عهد الدولة الاخشيدية قبل بناء القاهرة ، وكان يدوى اسمها فى الفسطاط والقطائع وما بينهما قبيل مجيء الفاطميين، كانت شخصية ترهب وتحب، ويضحك منها ، ويعتبر بها ، ان شئت علما فعالم ، أو شعراً فشاعر، أو أدباً فأديب ، أو وعظاً فواعظ ، أو فكاهة ففكه ، أو نقدا مقذعا فناقد ، أو جنوناً فمجنون

ولد بمصر سنة ٢٨٤هـ وعاش أربعا وسبعين سنة وأتقن النحو حتى لقب بسيبويه

ألطف مافيه لوثة (لحسة) كانت بعقله ، هى سر عظمته فقد جرأ على مالم يجرؤ عليه أحد فى عصره ، كان معتزلياً يقف فى المسجد وفى الشارع فيصرح بآرائه فى الاعتزال ، ويصيح بأن القرآن مخلوق فيقولون مجنون ، ويتركونه يقول ماشاء حيث لا يقول أحد شيئاً من ذلك الا همساً أو من وراء حجاب، ويتعرض للناس بالقول اللاذع سواء فى ذلك كافور الاخشيد أو وزيره ، أو العلماء أو التجار ، فيتضاحكون منه ويتقون لسانه ببره والاهداء اليه ، سراً وجهراً

كانت نوادره كثيرة ، تتلقفها الألسن ، ويتناقلها الرواة ، فتشيع فى الناس وتكون سلوتهم ومثار ضحكهم

وقديماً عرف المصريون بالفكاهة الحلوة والنادرة اللطيفة كما عرفوا بالأعجاب بها والجد فى طلبها والامعان فى الضحك منها

من أجل هذا ألف ابن زولاق المصرى كتابه اللطيف فى نوادر سيبويه ، لم يذكر فيه الا قليلا عن علمه ولم يذكر شيئاً عن نحوه ولا عن جده ، وانما ملأه كله بفكاهته ولوثته

حذا ابن زولاق هذا حذو مؤلفى العراق فى تدوين حوادث ظرفاء الممرورين . وابن زولاق نفسه يقول «لو كان سيبويه بالعراق لجمع كلامه، ونقلت ألفاظه، ولو عرف المصريون قدره لجمعوا عنه أكثر مما حفظوه »

عرف منذ شب بهذه اللوثة ، تظهر فى حركاته ورمش عينه ، وزادت بتردديه فى بئر أمام بيته ، وتهيج أحياناً فيطرح ثيابه ويمشى عريان فى الطريق، على عورته خرقة، وعلى أكتافه خرقة، وبيده عصا ومصحف ويروح الى الجامع وهو على هذا الشكل يعظ ويتزهد، وأحياناً تهدأ ثائرته فينادم الأمراء والوزراء ويعجبون بلطفه وظرفه، وتقول زوجه انه انما كان يهيج اذا لم يأكل اللحم والدسم فاذا أكلهما هدأ

قلت ان لوثته سر عظمته ، فاذا هو هدأ سكت ولكنه اذا هاج أتى بالنوادر الطريفة والكلم السيار ، ولذلك قالوا فيه انه « اذا لم يكن له من يهيجه لم يخرج عليه »

سب مرة خازن الاخشيد أو وزير ماليته فاخذه «وعذبه ثم أطلقه وأجرى عليه الرزق فكان الصبيان أحياناً اذا رأوه يتصايحون « ياخازن اخرج عليه » فيهيج مابه وينطق بالقول اللطيف

كان يقول القول على سجيته لا يرهب أحداً ، قد أدخل مرة مستشفى المجاذيب ثم أخرجه كافور الاخشيد ، فلما مثل بين يديه قال له سيبويه « ما مثلك يصطنع بعشرين ألف دينار ولا بثلاثين ألفاً اذا كنت عادلا، فاما اذا كنت جائرا فأسود بعشرة دنانير يقوم مقامك »

وكان أكثر قوله سجعاً ، ومن ثم كان أكثر دورانا على الألسنة وأسهل حفظاً

لقى المحتسب وبين يديه أجراسه فقال « ماهذه الأجراس يا أنجاس ، والله ما ثم حق أقمتموه ، ولا سعر أصلحتموه ،

---

(١) لفت نظر الناس الاستاذ عنان الى كتاب فى دار الكتب لابن زولاق عن سيبويه المصرى بخط مؤلفه، وللكتاب قيمة كبيرة؛ فابن زولاق مؤرخ مصرى دقيق، قد عاصر سيبويه ، وكتب عن مشاهدة وعيان وسيبويه شخصية تستحق التدقيق فيها والكتابة عنها كما سترى

فاثار كلام الاستاذ عنان الاديبين محمد ابراهيم سعد وحسين الديب وحملها على نقله وطبعه، فقاما بذلك. ولقيا فى نشره عناء شديدا لقدم النسخة الخطية ورداءة خطها وعدم اعجام الكثير من كلماتها فاستحقا بعملهما الثناء لولا ما وقعا فيه من أخطاء كان يمكن تجنبها او اكثرها بطول الصبر وكثرة المراجعة

ولا جان دبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أجراس تسمع ، لباطل يوضع ، واقفاء تصفع ، وبراطيل تقطع ، لا حفظ الله من جعلك محتسباً ، ولا رحم لك ولا له أما ولا أبا »

وكان مخشى اللسان يهرب الوجهاء والاعيان اذا سمعوا صوته من بعيد، حتى لا يقذفهم بقذيفة من لذعاته تسير فى الناس ، وكان كافور يعجب كيف يسكت المصريون على سبه ويقول : سبحان من سلط سيبويه عليكم ينتقم منكم وما تقدرون على الانتصار »

وما السبب فى هذا الا أنه كان يعمد الى الرؤساء فيصب عليهم كلماته القارسة تصيب منهم مقتلا ، ويسر الشعب من هذا لأنه يعبر عما فى نفوسهم ، وينتقم من خصومهم ويجرؤ بجنونه على مالم يجرؤ عليه عقلاؤهم ، وكان يستطيع بلسانه أن يصل الى ما يتحرج من ذكره المتدينون — لقد كان يوما يؤاكل ابن المادرانى الوزير ، وعنده هارون العباسى فقدمت هريسة فقال هرون : أكثر منها يا سيبويه فانها تذهب بالوسواس من رأسك ، فكف سيبويه عن الطعام وأخذ يفكر، فقالوا فيم تفكر؟ قال أفكر فى امتناع ابليس من السجود لآدم ، والآن ظهر عذره — علم ابليس أن هذا فى صلب آدم فلم يسجد له ، ولو عرض على كلاب اليهود أن تسجد لنسمة هذا فى ظهرها ما فعلت

ونحو هذا من انواع الهجاء القاسى

وهو مع هذا أديب ظريف له نظرات فى الادب جميلة يقول : ان أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه ، وعذبت معانيه ، واستسلس على ألسن ناطقيه ، ولم يستأذن على آذان سامعيه

وقد هجا بعض الناس شيخا من شيوخه فقال سيبويه

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه صبى بحجر

وسمع بيت المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد

فقال هذا كلام فاسد ، لان الصداقة ضد العداوة ولو قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود

وبلغ المتنبى هذا النقد فذهب الى سيبويه وسمعه منه فتبسم وانصرف ، فصاح سيبويه — انبكم !—

ومع هذا فلما سمع قول المتنبى :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى

رضوى على أيدى الأنام تسير الخ

صاح سيبويه لبيك لبيك ! أنا عبد هذه الابيات

مما يدل على ذوق حسن ونقد صحيح وتقدير للادب

ولقد كان عالى النفس ، دقيق الحس ، يرى الناس كلهم دونه ، فلا يذل لعظيم ، ولا يهين لكبير ، طلبه أنوجور بن الأخشيد أمير مصر لينادمه، فقال على شرط أن أنزل حيث تنزل ، وأركب حيث تركب ، وأجلس متكئاً ، فاجابه الى شرطه

وكان سيبويه يحدث عظيما فجاء خادم يسر حديثا الى هذا الجليس فسمع له وقطع الاستماع لسيبويه. فقام سيبويه مغضبا ، فسأله الى أين؟ قال لا تجالس من لا يرى مجالستك رفعة ، ولا تحدثن من لا يرى حديثك متعة ، ولا تسألن من لا تأمن منعه ، ولا تأمرن من لا تأمن طوعه

ولما ماتت أم سيبويه حضر فى جنازتها كل كبير فى مصر الا ابن المادرانى الوزير ، وعاد والناس حوله ، فاخذ سيبويه يطلق لسانه فى هجاء ابن المادرانى ، ومانجاه من لسانه الا أن لقيه فى الطريق يأتى مسرعا ليدرك الجنازة

على الجملة كان سيبويه طرفة مصر فى عصره ، علما وأدباً وفكاهة وجنونا — كان يقوم فيهم مقام العالم والواعظ والأديب، ومقام الجريدة السيارة الناقدة اللاذعة، وكان منظره بديعاً ، يدور فى الاسواق على حماره أو حمار غيره ، وما أكثر من كان يتقى لسانه بتقديم حماره !

فبحق قال « جوهر الصقلى » لما دخل مصر وذكرت له اخباره « لو أدركته لأهديته الى مولانا المعز فى جملة الهدية»

وبحق لما سمع به «فاتك» ممدوح المتنبى قال : ذكرونى به فلعلى أستدعيه فانه نزهة .